مقارنة بين افكار
اقبال والنورسي

جلال جلالي زاده *

واجب على كل مسلم ومفكر ان يهتم باحياء الذكرى والآثار الخالدة للعلماء المناضلين المسلمين، الذين كتبوا على صفحات التاريخ الاعتزاز والمجد لهذه الامة. هؤلاء العلماء الذين يصدق عليهم حديث الرسول الاكرم ﷺ »العلماء ورثة الانبياء«. اعنى كما بذلوا جهدهم لتحرير الانسان وانقاذ الايمان وتحطيم الاصنام واعلان العبودية لله الواحد الاحد ورفض الهوان والخذلان ، غرسوا ايضاً بذر المحبة والامل والحرية في قلوب الناس. يقول العلامة محمد كرد على : » لاتنسوا اصحاب الفضل عليكم او على بلادكم او امتكم، اكثروا من ذكرهم ورددوا اسماءهم في المجالس وترجموا لهم وشجعوا من يريد ان يترجم لهم او يكتب عنهم او يشيد بآثارهم كى تبقى اسماؤهم حية في نفوس الناس ومعروفة عند الناشئة بصورة خاصة«(١) لهذا عقدت العزم على ان اكتب بحثاً ومقالاً حول دور العلامتين الكبيرين الامام بديع الزمان سعيد النورسي وفيلسوف الاسلام اقبال اللاهوري واناقش آراءهما لكي ينجلي للقراء الاعزاء اهمية ومكانة شيخنا المجاهد النورسي.

لماذ اخترت هذا الموضوع؟ هذا السؤال احاول الاجابة عليه في هذا المقال بحول الله. كان محمد اقبال والنورسي معاصرين اي في القرن العشرين ونجمين اضاءا سماء الدين وبددا الظلمة الحالكة وبسطا جناحي الرحمة والعلم في اقطار العالم الاسلامي.

ولد العلامة محمد اقبال سنة ١٨٧٧ م وتوفي في ابريل ١٩٣٨ م، بينما ولد بديع الزمان سنة ١٨٧٣ م وتوفي عام ١٩٦٠م.

حينما يطالع المرء آثارهما ويتابع اراءهما حول مسائل ذات الاهمية في المجتمعات الاسلامية يرى انهما مثقفان في كثير من المباحث دون ان يتم بينهما لقاء او دون ان يلاحظ احدهما افكار الاخر واراءه ، وهذا هو الذي اثار اعجابي إذ كيف يكون في عصر واحد وفي مكانين مختلفين ومتنائيين مفكران ومصلحان يناقشان مواضيع شتى ويلتقيان في اتجاه متقارب جدا؟ وهل يمكن ان يبرز في عصر واحد مجددان؟ ورسول الله ﷺ يقول »إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها«(٢)

يقول الدكتور محسن عبد الحميد : »لا يدل على ان المجدد في العصر الواحد يكون واحداً، لإنَّ »من« يدل على الجمع كما يدل على المفرد. إذن فمن الممكن ان يأتى في عصر واحد اكثر من مجدد، لا سيما في هذا العصر الاخير الذي سقط فيه المسلمون سقطة كبيرة، وجابهتهم فوق ذلك حضارة جاهلية كافرة شاملة، استعمرت بلادهم ، وغيرت احوالهم وسفهت مفاهيمهم، وشككتهم في دينهم وهددت وجودهم بالفناء. فكان من رحمة الله بالمسلمين ان بعث مجددين كثيرين وفّق الله تعالى كل واحد منهم لتجديد ناحية من نواحي حياة المسلمين في امور دينهم ودنياهم«(٣)

مع انهما نشئا وترعرعا في بلدتين متباعدتين وفي مدرستين مختلفتين ، اذ كان اقبال خريج المعاهد والاكاديميات الحديثة، بينما كان النورسي ينهل علومه من المدارس الدينية على الطريقة القديمة. لكن كانا بمنزلة النفس الواحدة. فكيف بهما لو التقيا وتدارسا وتناولا الافكار بعضهما البعض كالسيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده. لكي يستفيد العالم الاسلامي من توجيهاتهما الملهمة ويستيقظ من النوم الثقيل المفروض عليه.

مقدمات التكوين في شخصيتيهما:

كانت لكل منهما مميزة وخصيصة وهو: ان إقبال تأثر من »سيرتوماس آرنولد« وتحت تأثيره اختار الطريق الدراسي، اما النورسي فقد هزت قلبه حادثة اخرى وكانت سبباً لان يختار طريقه وهي كلمات »كلادستون« وزير المستعمرات البريطاني

حينما قال » لامناص لنا من ان نزيله (القرآن) من الوجود او نقطع صلة المسلمين به« زلزل هذا الخبر كيانه زلزالاً شديداً، وصمم بينه وبين نفسه ان يكرس كل حياته لاظهار اعجاز القرآن وربط المسلمين بكتاب الله حيث قال » لابرهنن للعالم بان القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها«(٤).

والآن نبدأ بعرض آرائهما حول المسائل المتنوعة ونناقشها لكي تعرف مكانة هذا المفكر ويعلم اعداء الاسلام انهم لا يقدرون ان يطفئوا نورالله. والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وكلما تشرق الشمس وتنقضى الايام يعرف المسلمون سيما الشباب والمثقفون النورسي جيداً ويصل نداؤه الى اقصى المناطق بفضل الله.

آراؤهما حول القرآن:

يقول العلامة اقبال: القرآن الحكيم هو الكتاب الحي وحكمته الازلية القديمة فيه اسرار تكوين الحياة. ويحي الناس ويمنح القوة للضعفاء. حينما رسمت صورة القرآن على صفحة العالم ازال صور الخاخام والبابا(٥).

ويقول الامام النورسي: القرآن هو الترجمة الازلية لكتاب الكائنات الكبير شمس عالم الاسلام المعنوي واساسه وهندسته، وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر وهو المرشد المهدي الى ما يسوق الانسانية الى السعادة وكذا هو للانسان كما انه كتاب شريعة كذلك هو كتاب حكمة، وهو كتاب سماوى يتضمن اجمالاً كتب جميع الانبياء المختلفة عصورهم« (٦)

نرى قرب وجهات نظرهما في معظم الموضوعات سيما القرآن، وللقرآن تاثير كبير في تكوين شخصيتهما الفذة استأنسا به في كل المجالات واهتديا بهديه في سبيل اعادة العزة والكرامة لهذه الامة ودعوا الى العمل به وشمرا عن ساعد الجد لاحياء دور كتاب الله ورفعه من رفوف المساجد الى اصعده الحياة ومن مجالس العزاء والمقابر الى اروقة البحوث والدراسات. ومن يتأمل رسائل النور يجد ان النورسي قد بذل حياته كلها في نشر كتاب الله، مفسراً كبيراً لحقائقه وناشراً لمعارفه، انس بآياته فضلاً عن كونه جندياً مخلصا مثابراً في امتثال اوامره واجتناب زواجره.

الحرية:

بعد سقوط الخلافة وتجزئة البلاد الاسلامية بدأت الدعايات الواهية تحت شعارات الحرية والاستقلال والقومية والمساواة بين الرجل والمرأة وحاولوا ليعطوا صورة مثالية عن الغرب بهدف تشويه دين الاسلام ، اثر ذلك وقع كثير من المسلمين السذج والشعوب الاسلامية في المصيدة التي وضعه الغرب لهم . اما هذان العالمان فكانا يجتهدان ليبينا العقائد الاسلامية والاحكام الالهية لينقذوا الامة من مؤامراتهم واستطاعا بعناية الله ان ينبها ضمائرهم وقلوبهم ويمنعا من تسرب السموم الناقعة في أغذيتهم الروحية.

يقول العلامة اقبال:

حين انقطعت الصلة بين الخلافة والقرآن دسّ السم للحرية.

من عاهد الله وعبد الله تحرر من كل قيد العبودية لغير الله(٧). ويقول النورسي: » بني وطني! لا تسيئوا تفسير الحرية كي لا تذهب من ايديكم ، لا تصبّوا العبودية العفنة في قوالب براقة لتسقونا من علقمها، ان الحرية لا تتحقق ولا تنمو الا بتطبيق احكام الشريعة ومراعاة آدابها.« (٨)

الحرية الغربية اللااسلامية عند النورسي كالحية ليّن مسها قاتل سمها ولا يليق بالمسلم ان تخدعه هذه الحرية البراقة. بل الحرية الواقعية انما هي في الاسلام وفي ظل الحرية الاسلامية يصعد الانسان الى السموات العلى ويتحرر من كل القيود الارضية وبخلوص العبد لخالقه يستنكف من الخشوع لامثاله من الناس.

يقول حافظ الشيرازي:

سنوات كان القلب يطلب مناجامَ جم... كان يطلب من الاجانب شيئا كان بحوزته هو تدريس العلوم الحديثة:

تعلم العلوم الحديثة

سيطرت الامية والجهل والتخلف في العصور الاخيرة على جوانب الحياة المختلفة للمسلمين، والمجتمعات الاسلامية متخلفة عن ركب التقدم والعلوم الحديثة والمدارس الدينية مندرسة لا رونق فيها واشتغل العلماء بابحاث لا طائل تحتها والخلافات المذهبية وكتابة الحواشي على المتون القديمة، لاجل هذا شاعت البدع والخرافات والخلافات وتلك مشكلة عصية ابتلي بها المسلمون واهتم بها العلماء والمفكرون بغية معالجتها وانقاذ الامة من تبعاتها.

وقد اهتم شيخنا النورسي رحمة الله عليه بهذا الجانب كثيراً وحاول أن يفتح مدارس ليقتطف المسلمون من أزهاره في القادم من الأيام. »حينما كان في اسطنبول قدم الى السلطان عبد الحميد طلباً بفتح المدارس التي تعلم العلوم الكونية الحديثة بجانب العلوم الاسلامية حيث كان يؤمن بضرورة الدراسة المندمجة وعدم الفصل بينهما جريا على المنهج الاسلامي الصحيح في الوحدة بين العلوم الكونية والدينية«(٩)

يقول اقبال: »لنا طريق واحد وهو ان ندرس العلوم الجديدة ونحترمها وان نمارس التعاليم الاسلامية في ضوء هذه العلوم ولو اختلف اسلوبنا مع القدماء«(١٠).

كلاهما يحثان على تعليم العلوم الحديثة اما نهجهما فمتفاوت ولكن منهج واقتراح النورسي اقوم وانفع.

الاستبداد:

نظام الحكم في الاسلام مؤسس على الشورى، فلا استبداد ولا ديكتاتورية ولا ملكية في الاسلام، وفي التاريخ الاسلامي كانت الطامة الكبرى ان تبدلت الخلافة الراشدة الى ملك عضوض فعطل هذا المبدأ السامي (مبدأ الشورى) واجتمع حول الملوك علماء السوء ووعاظ السلاطين يبررون مفاسدهم ويلقبونهم بألقاب وعناوين في غاية المبالغة ويدعون الناس الى طاعتهم. والتبس هذا الوضع على الناس سيما غير المسلمين، فزعموا ان الاسلام مع الاستبداد وهذا في الواقع فهم خاطئ وموهم لان كثيراً من العلماء المخلصين لبثوا في السجون اعواماً عديدة او قتلوا او شردوا ووضعوا تحت الاقامة الجبرية. وخير شاهد على ذلك الاستاذ النورسي .

يقول النورسي: »لا استبداد في الاسلام ، فما يصدر حول فرد من الافراد يجب ان يصدر بعد استكمال جميع مراحل المحاكم التي يجب ان تكون علنية وضمن العدالة الشرعية«(١١).

تعالوا نسمع اقبال يصرح بان النظام الملكي مخالف للاسلام. يقول: الاستبداد والنظام الدكتاتوري حرام وفي الانظمة العلمانية يكون الانسان عبداً لا حراً. الخلافة شاهدة على مكانتنا والاستبداد حرام عندنا. الملكية كلها مكر وخدعة. اما الخلافة فانها حافظة للقوانين الالهية. الانسان في العالم رق، نظامه ناقص وعمله غير متكامل. انا عبد لله ومفتقر اليه وحده، دينه قد حرم الاستبداد (١٢)

الاجتهاد:

من المواضيع الهامة التي كانت مثار بحث العلماء انسداد باب الاجتهاد، في حين ان الاجتهاد كان موجوداً في عصر النبوة والخلفاء الراشدين وكثير من الصحابة والتابعين وائمة المذاهب كانوا يفتون ويجتهدون وينهون عن التقليد وبتوقف هذا التيار في القرن السادس وبعد هذا القرن بدأ عصر الانحطاط والتقليد واغلق هذا الباب الذي فتح الله على الناس رحمة لهم.

اما العلماء المخلصون فكانوا ينظرون الى هذه المسئلة بمنظار دقيق واسلوب حسن فمن جانب قاوموها واعتبروها بدعة

تخالف الاسلام وإنْ لم يقل بها احد من السلف. ومن جانب آخر وضعوا للاجتهاد شروطاً لا تجيز لكل احد ان يدعّيه لنفسه ليلعب وباصدار الفتاوى ويصير الإجتهاد ألعوبة بيد الطغاة. وما أحسن ما قاله الأستاذ النورسي في موضوع الإجتهاد: » ان باب الاجتهاد مفتوح إلا ان هناك ستة موانع في هذا الزمان تحول دون الدخول فيه« (١٣) وبعد بيان هذه الموانع يقول » إن قرب عهد المجتهدين العظام من السلف الصالح لعصر الصحابة الكرام الذي هو عصر الحقيقة وعصر النور يسرّ لهم ان يأخذوا النور الصافي من اقرب مصادره، فتمكنوا من القيام باجتهاداتهم الخالصة، في حين ان مجتهدي العصر الحديث ينظرون الى كتاب الحقيقة من مسافة بعيدة جداً ومن وراء كثير جداً من الاستار والحجب حتى ليصعب عليه رؤية اوضح حرف فيه«(١٤)

اما من وجهة نظر اقبال فان سد باب الاجتهاد في عصور الانحطاط كان خيرا لهذه الامة من اجتهاد علماء السوء لانعدام نظام الاسلامي وغياب المجتهدين ويقول: اتبع سبيل السلف الذي هو سبب الوحدة والتقليد منهم يسبب الانتظام وحفظ الامة الاجتهاد في زمن الانحطاط سبب لتبدد الامة واتباع السلف خير من اجتهاد علماء السوء. خصوصاً في هذا العصر الذي ضاق علينا طريق الدين وصار كل لئيم صاحب السر لهذا الدين.(١٥)

الفلسفة:

بعد ان ترجمت كتب الفلسفة الى العربية وبرزت الفلاسفة المسلمون كالفارابي وابن سينا كانت دراسة الفلسفة موضوع رد وقبول بين علماء الدين ولهذا ذهب بعضهم الى تكفير الفلاسفة وكتبوا كتباً ضد هذا العلم مثل الامام الغزالي وابن الصلاح الشهرزوري. في جانب آخر أيد علماء آخرون الفلسفة. وهناك جماعة ثالثة سلك طريق الاعتدال ولم يقبلوا مذهب هؤلاء ولا مذهب هؤلاء - اي طريقاً وسطاً بين الافراط والتفريط - ورأو الحقائق برؤية واقعية دون رفض للفلسفة ولا قبولها قبولاً مطلقاً. وقالو بأن تهذيب الفلسفة من الاخطاء والضلالات ضروري للغاية وتتبع لمنهج الانبياء.

يقول النورسي »إن في تاريخ البشرية - منذ زمن سيدنا آدم عليه السلام - الى الوقت الحاضر تيارين عظيمين وسلسلتين للافكار يجريان عبر الازمنة والعصور كانهما شجرتان ضخمتان ارسلتا اغصانهما و فروعهما في كل صوب وفي كل طبقة من طبقات الانسانية احدهما سلسلة النبوة والدين والاخرى سلسلة الفلسفة والحكمة«.(١٦)

وبعد هذه العبارة يقول: »فمتى كانت هاتان السلستان متحدتين وممتزجتين اي في اي وقت او عصر استجارت الفلسفة بالدين وانقادت اليه واصبحت في طاعته انتعشت الانسانية بالسعادة وعاشت حياة اجتماعية هنيئة. ومتى ما انفرجت الشقة بينهما وافترقتا احتشد النور والخير كله حول سلسة النبوة والدين وتجمعت الشرور والضلالات كلها حول سلسلة الفلسفة« (١٧)

يرى اقبال ان الفلسفة من مستلزمات هذا الدين ولهما وجوه مشتركة، يسأل: ما هو الهيكل العام للعالم الذي نعيش فيه؟ هل توجد في بنائه عناصر ابدية وثابتة؟ وكيف نتصل نحن كبشر بهذا العالم وبهذا البناء؟ وما هو موقفنا في الكون؟ وما هي الآداب والاخلاق التي تليق بموقعنا هذا؟ .

يجيب محمد اقبال: بأن هذه اسئلة مشتركة بين الدين والفلسفة، الفلسفة تفتقر الى الحرية في بحوثها وتفحصاتها وجوهر الدين هو الايمان والايمان مثله كمثل الطائر لا يحتاج الى الفلسفة اما الفكر والعقل فهما عنصران حيويان للعقل« (١٨).

فموقفهما اذن من الفلسفة موقف واحد. وهو ان الفلسفة لا تكفي لإسعاد البشر دون الرجوع الى الدين.

يقول اقبال: ان الفلاسفة الذين ينكرون النبوة حاولوا الوصول الى معرفة العالم معرفة كاملة وبذلوا جهوداً حسنة لكنهم لم يفلحوا ولن يفلحوا لانه لا يمكن للفلسفة ان تصل الى الحق دون الاستمداد من النبوة (١٩).

موقفهما من الحضارة الغربية:

يقول الدكتورعبد الودود شلبي حول موقفهما من هذه المسئلة: »ان موقفهما من الحضارة الغربية كان موقفاً واحداً، كلاهما لم تخدعه الظواهر البراقة الزائفة، وكلاهما لم تغره طبول الدعاية الكاذبة، لقد نظرا الى جوهر الحضارة وروحها وتعمقا في فهم خفاياها واسرارها« (٢٠)

يقسم العلامة النورسي اوروبا وحضارة الغرب الى قسمين:

احدها: هي اوروبا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وادت خدمات لحياة الانسان الاجتماعية، بما توصلت اليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والانصاف فلا أخاطب - في هذه المحاورة - هذا القسم من اوروبا وانما اخاطب اوروبا الثانية تلك التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية وحسبت سيئات الحضارة حسنات لها، وتوهمت مساوءها فضائل، فساقت البشرية الى السفاهة واردتها الضلالة والتعاسة(٢١).

ما احسن النورسي قاضياً عادلاً يقضي ولا يخون ولا يكتم وان كان لمصلحته لا يعرف الصديق ولا العدو، لا يخفى الحقائق ويقول الحق ولو كان عليه. نرى كيف يقسم اوروبا الى قسمين ويخاطب اوروبا الثانية ويقول: »ياأوروبا الثانية! اعلمى جيداً انك قد اخذت بيمينك الفلسفة المضلة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرّة السفيهة ثم تدّعين ان سعادة الانسان بهما، الاّ شلّت يداك وبئست الهدية هديتك، ولتكن وبالا عليك وستكون«(٢٢).

حينما رجع العلامة الدكتور اقبال الى الهند كان خبيراً بمفاسد الغرب كلها ولأجل هذا استنكر الذين يذهبون الى اوروبا وتبهرهم حضارتها. ونرى هذه العبارة في آثاره » ليتني لم اضيع سنوات من عمري في الغرب«(٢٣) ويقول »ان اوروبا تنتحر والروح تموت عطشا في سرابها الخادع.. فيها حضارة، نعم ولكنها حضارة تحتضر. وان لم تمت حتف انفها فلسوف تنتحر غداً وتذهب. فاساس هذه الحضارة منهار لا يحتمل صدمة« (٢٤)

التصوف:

اذا كان المقصود بالصوفي من يجاهد نفسه ويرغب عن ظواهر الدنيا ويكثر من التبتل العبادة، فالنورسي يكون صوفياً. ولكن النورسي الحقيقة هي أنّ اكبر من ان يحسب صوفياً منعزلاً بعيداً عن الناس بل كان مجاهداً مخلصا وسياسياً عبقرياً، وفقيهاً مفكراً لا يرضى بأن يكون من الخوالد ويشغل بنفسه وينسى الناس ويخلع ربقة المسؤلية عن عاتقه ويقعد مع القاعدين بل ادرك ان الله اخذ من امثاله العهد ان يحملوا هذه الامانة العظمى وهي انقاذ الايمان في المجتمع المضطرب، وادى الامانة احسن الاداء جزاه الله عنا خير الجزاء، اين اولئك العلماء الذين عاصروا النورسي وسكتوا عن الحق؟ كلهم ماتوا ولم يبق لهم اثر. اما النورسي فانه باق خالد ما بقي الاسلام والايمان.

كان بمقدوره ان ينال اعلى المناصب الحكومية وينتحل لنفسه الالقاب العظام المزيفة لكنه لم يفعل وما كان له ان يفعل.

يقول : »انني لست شيخاً صوفياً وانما انا عالم ديني«(٢٥) ويقول: »لكني لم اقل لمن اتاني الاّ ان الزمان ليس زمان الطريقة، الايمان ضروري والاسلام ضروري«(٢٦) وجاء في كثير من رسائله » ان هذا العصر ليس بعصر تصوف وطريقة وانما هو عصر انقاذ الايمان«(٢٧)

وفي الرد على الذين كانوا يقولون ان التصوف ينقذ الانسان في الآخرة كان يقول »لايمكن دخول الجنة من دون الايمان بينما يدخلها الكثيرون جداً دون تصوف فالانسان لا يمكن ان يعيش دون خبز بينما يمكنه العيش دون فاكهة، فالتصوف فاكهة والحقائق الاسلامية خبز«(٢٨)

يقول في علماء السوء : » ان هناك زجراً عظيماً في حق علماء السوء فليحذر اهل العلم في هذا الزمان حذراً شديداً«(٢٩)

هناك اختلاف في موقفهما حول التصوف، فاقبال كان مخالفاً لمنهج التصوف وادابهم العملية لكن له بعض الافكار الصوفية، كوحدة الوجود الصوفية القائلين بانه يلزم على الانسان ان يفنى نفسه لكي يغوص في الله، اما اقبال فانه يقول يلزم عليكم ان

تعرفوا النفس وتغوصوا في الذات وتربوها وتوسعوها وتهيئوها لكي تكون خليفة الله وظل الله في الارض وتكون محل الله ومع الله واحداً. يخاطب الانسان ويقول: من الذي تطلب؟ لم لا تطمئن الأنه ظاهر وانت تحت الحجاب؟ انك تسعى ان تراه ولا ترى الا نفسك. وان تسعى ان ترى نفسك لا ترى الاّ هو.(٣٠)

ونراه يوجه نقداً للمتصوفة وعلماء السوء ويقول:

إنَّ الاقتداء بالصوفي وعالم السوء يجعل المرء محروماً من فلسفة القرآن اذ لا يفهم حينئذ من القرآن الا ان تقرأ سورة (يس) على المرضى ليموتوا بسهولة«(٣١)

اما النورسي فانه يرد وحدة الوجود قطعاً ويقول » فالموجودات ليست اوهاما كما يدعى اصحاب وحدة الموجود، بل هذه الاشياء الظاهرة هي من آثار سبحانه وتعالى.. فليس صحيحاً قولهم » لا موجود الا هو « وانما الصحيح »لا موجود الا منه« ذلك لان الحادثات لا يمكن ان تكون القديم نفسه، اي ازلية«(٣٢)

القومية والعصبية

الكارثة العظيمة التي حلّت بالامة الاسلامية هي سقوط الامبراطورية الاسلامية وتجزئة البلاد واحياء روح العصبية في الشعوب الاسلامية واشعال نار حرب الشعوب ضد الاخرى، إثر ذلك حدث ما حدث وسهل ابتلاعهم على الاعداء. ما احسن ما يقول اقبال: لما تحررت من قيد الماء والتراب قلت انا رومي او افغاني، بل انا قبل اي انتساب الى اللون والوطن واللسان كنت انساناً.(٣٣)

يعتقد اقبال ان لافرق بين القوميين والمتعصبين واهل التفرق والوثنيين لانهم يفدون الانسان بين يدي هذا الصنم.

الانسان يعبد الصنم وكل زمان يبحث عن الصنم وكآرز يخطط ويصنع معبوداً جديداً، و هذا الصنم المسمى باللون والقومية والحكم يشتهي الدماء والانسان كالشاة يذبح بين يدي هذا الصنم. (٣٤)

الدكتور اقبال لا يشير الى الابعاد الايجابية والسلبية للقومية بينما الاستاذ النورسي يقسمها الى قسمين ويذم القومية السلبية و انها من ثمار الحضارة الغربية لكي تفصم الاخوة الاسلامية.

يقول النورسي: »ولكن القومية نفسها على قسمين ي: قسم منها سلبي مشئوم مضر يتربى وينمو بابتلاع الآخرين ويدوم بعداوة من سواه ويتصرف بحذر وهذا يولد المخاصمة والنزاع«(٣٥)

ويذكر الاستاذ شواهد من التاريخ تدل على مضرة القومية كالامويين والاوربيين ويقول: » اما الآن فان التباغض والتنافر بين عناصر الاسلام وقبائله - بسبب من الفكر القومي - هلاك عظيم وخطب جسيم.« (٣٦)

ويعبر عن القومية الايجابية بان »القومية الايجابية نابعة من حاجة داخلية للحياة الاجتماعية وهي سبب للتعاون والتساند ، وتحقق قوة نافعة للمجتمع وتكون وسيلة لاسناد اكثر للاخوة الاسلامية، هذا الفكر الايجابي القومي ينبغي ان يكون خادماً للاسلام وان يكون قلعة حصينة له وسوراً منيعاً حوله لا ان يحل محل الاسلام ولا بديلا عنه« (٣٧)

الوحدة الاسلامية:

الاسلام دين الوحدة والتوحيد ينهى عن التفرق والتباعد ويدعو الى التعاون والاخوة والتقريب، في حين ظهرت الفتن والتفرق والتمزق عندما غابت تعاليم الإسلام عن حياة المسلمين فسيطرت على هذه الامة علائم الذل والهوان وتخلفوا عن موكب الزمان واخلدوا الى المكان ورضوا بمذهبهم وفرحوا بما لديهم وأصبحوا شيعاً ولولا فضل الله لكانوا من المشركين. في هذا الجو الحالك راجت سوق المذاهب وخمدت معالم الدين وفي جانب آخر سرّ اعداء الامة من الكفار والمنافقين لكن العلماء المجاهدين والداعين الى رب العالمين لم يمنعهم المخاطرات والتهديدات من القيام بهذا الامر العظيم وهو ان يدعو الامة

الاسلامية بجميع مذاهبها الى الوحدة ونبذ الخلافات التي لا جدوى لها، ونرى ايضاً النورسي حائزاً القصب السبق في هذا المضمار وفائقا على اقرانه، حيث يهتم بمسئلة الوحدة ويخاطب المسلمين على قمة الايمان ويقول: » فيا اهل الحق الذين هم اهل السنة والجماعة ويا ايها الشيعة الذين اتخذتم محبة اهل البيت مسلكاً لكم ارفعوا فوراً هذا النزاع فيما بينكم، هذا النزاع الذي لامعنى له ولا حقيقة فيه وهو باطل ومضر في الوقت نفسه. وان لم تزيلوا هذا النزاع فان الزندقة الحاكمة الآن حكماً قوياً تستغل احدكما ضد الآخر وتستعمله اداة لإفناء الآخر ومن بعد إفنائه تحطم تلك الاداة ايضاً.

فيلزمكم نبذ المسائل الجزئية التي تثير النزاع لانكم اهل التوحيد بينكم مئات الروابط المقدسة الداعية الى الاخوة والاتحاد«(٣٨)

ويقول العلامة اقبال: » أليس نبينا واحداً وديننا واحداً وكعبتنا واحداً وقرآننا واحداً؟ والهنا واحداً؟ هل تضرنا الوحدة ؟ قولوا لي هل يمكن ان تنتفع الامة بالتفرقة والخلاف او هل يسعدها النفاق والشقاق«(٣٩)

الادب:

كان العلامة اقبال شاعراً وينشد الشعر باللغتين الاردية والفارسية وعبر عن افكاره بالشعر واشعاره يحوي الدقائق العلمية والفكرية وترجمت الى اللغات الاخرى وهذا دليل على مهارته في هذا الفن. اما النورسي فانه يعترف بانه »لم اتمكن طوال حياتي من نظم بيت واحد ومن وزنه«(٤٠) لكن من يتأمل في رسائل النور يدرك ان الرسائل لا تجرى الا من قلم ساحر ولسان فصيح فلنستمع إلى" سيد شعراء الترك محمد عاكف ليعرفنا ادب الاستاذ بقوله: »ان شكسبير وهيجو واضرابهما لا يبلغان الا الى مرتبة تلميذ بديع الزمان في الادب والفلسفة«(٤١) لنعلم ان ادبه رفيع جداً .

الحل الاسلامي:

يتكون الدين من ثلاث دوائر الدائرة الاولى هي العبادات والاحكام الفرعية والدائرة الثانية هي الاعتقادات والدائرة الثالثة او المبدئية او المركزية هي التجارب الدينية ولكن قليلاً من المفكرين استشعروا هذه النقطة ودلّوا عليها في كتبهم، غير ان المفكرين المذكورين بيّناها وعلما ان الحياة الاسلامية والمجتمع الاسلامي لا يمكن انعقادها بدون كسب الايمان ورسوخ التجربة الدينية. ولا ينجح المجتمع الاسلامي الا بتقوية التجارب الدينية.

يرى بديع الزمان سعيد النورسي ان ما يعاني منه المسلمون من عوابس الخطوب وكالحات المحن يرجع الى غياب الوعي الايماني العميق، وانطفاء العقل السليم القادر على صنع الافكار المستنيرة ويضيف الى هذا الوهن الذي ألمّ بالامة فجعل الدنيا لديها اولى من الآخرة وأفقدها الاحساس بالمخاطر التي تحيط بها من كل جانب. فالحل الاسلامي في نظر النورسي يكون بالتربية الايمانية العميقة والتربية العقلية الرشيدة، فقوة الايمان وقوة التفكير كجناحي الطائر لا يحلق بالفضاء الا بهما معاً« (٤٢)

ان عدم اليأس والقنوط في الحالات الصعبة التي تشيب لها الولدان صفة بارزة للمجاهدين والامل بالنصر والفتح والتوكل على الله علامة على رسوخ الايمان ، والنورسي كان من هؤلاء المجاهدين يأمل بالنصر القريب للاسلام رغم المظاهر البراقة للاعداء »كان النورسي مع شدة الخطوب والمحن التي نزلت بالامة وماتعرض له شخصياً من الاضطهاد والنفي متفائلاً بمستقبل الاسلام. وان شتاء هذا الدين الكابي الحزين سيعقبه الربيع القادم، وان البشرية كلها ستنعم بخير هذا الربيع لانه في حاجة اليه ولن ينقذها مما هي فيه الا نسمات ربيع الاسلام وهو ربيع قادم لا محالة إن شاء الله« (٤٣)

اما الشاعر الفيلسوف محمد اقبال فقد عبر في خطبته التي القاها عام ١٩٣٠ عن امله في إقامة دولة اسلامية تكون على حد قوله : المعمل الذي يثبت فيه الاسلام صلاحيته لتكوين المجتمع الصالح وتنظيم الحياة الاجتماعية وحل المشكلات

الاقتصادية وتوجيه المدنية توجيهاً صالحاً، والتطبيق بين العقيدة والعمل والروح والمادة والفرد والجماعة، تطبيقاً يثير العجب والاعجاب ويحمل قادة الاقطار الاسلامية على التقليد ويحمل المفكرين في العالم على التفكير في اسلوبه الجديد«(٤٤)

النورسي واقبال المجددان

ذكرنا سابقاً ان هناك شخصيات لهم دور كبير في تنشئة فكر اقبال واعجب بهم ويهتم بشأنهم كالمرشدين في سلك هذا المسلك كالافغاني والمولوي و....

اما النورسي فهو مستقل بنفسه لم يدرس في اي مدرسة فكرية ولم يتتلمذ عند أي استاذ ولم يتصل بحزب او بمنظمة سياسية مع ذلك اصبح رائداً كبيراً في هذا المجال ورفع لواء الايمان وأعلى كلمة الاسلام واستاذه الوحيد كان القرآن وألهمه الله ان يكون مجدداً ، على هذا يقول الدكتور محسن عبد الحميد» إن النورسي مجدد لا نظير له، في مسلكه في العصر الحديث، لانه لم ينطلق من علم معين ولا بدأ من استاذ موجه ولا اصطبغ في ما قال وما كتب، وما فعل بمعارف محسوبة، على الرغم من اساتذته الكثيرون ودراسته علوماً متعددة ومطالعته لمعارف واسعة« (٤٥)

يقول الدكتور محسن عبد الحميد: »إن تجديد النورسي لحياة المسلمين في تركيا ومحاولة صياغتهم صياغة ربانية كريمة في اطار انقاذ الايمان والدعوة الى نظام الاسلام والتحرير من كيد الاعداء كان في عالم معاصر وفي صراع حضارة معاصرة« وبعد يقول:

»انه يريد ان يجدد حياتهم في اطار الزمن الحاضر والمكان الحاضر والصراع الحضاري ولكن في حدود احقية القرآن واستاذيته وقيادة الرسول الاعظم ﷺ والقيم الرفيعة النبيلة التي صاغت كتائب المجاهدين في الحياة« (٤٦)

بناءًا على هذا هل يكون النورسي من المجددين ام لا؟ قبل الاجابة لهذا السؤال نقول: ان كان المجدد المصلح هو الذي ينهض لاعلاء كلمة الله واصلاح الدين عند فساد الامة وغربة الاسلام في حين يحاول الاعداء إبادة الاسلام و إزالة الروح الاسلامي والديني وان لا يبقوا من الاسلام الا اسماً ولا من القرآن الا رسماً ولا من المساجد الا زخارف، يقاومهم ويكافح ضدهم ويشعل النور الإيمان الوهّاج ليثبت هذا النور الوضئ في قلوب المسلمين، أليس النورسي واجداً لهذه الخصائص ؟ ألم يسع لانقاذ الايمان وتحكيم الشريعة وتطبيق الاحكام القرآنية وتنفيذ اوامره وتوطيد دعائم الاخوة وحل المعضلات الفكرية؟ بلى وحاول اكثر من هذا.. الا يكون هذا الرجل مجددًا؟ يجيب الدكتور عبد الحميد » انه مجدد حقاً، لانه لا يدعوا الى النكوص الى الوراء ولا الوقوف عند الزمن الحاضر وانما يؤمن بحركة الاسلامية وتجديد الفكر الاسلامي الحضاري في كل عصر موازياً للمستوى الحضاري الذي وصل اليه في كل عصر« (٤٧)

والعلامة اقبال كذلك، وهو ايضاً عرف الداء الذي ابتلي به الامة وهو اليأس و الحزن والخوف ويعبر عنها بالعوامل المميتة للحياة وازالتها منوطة بالتوحيد ويقول: إعرف نفسك ، ثم تفان في الامة وطريق الفلاح في هذا » ودعا إقبال الى فهم الذات كي يستيقظ المسلمون ويسترجعوا عزتهم وكرامتهم ودعا الى التغيير الدائم في اطار ضوابط الشريعة، والى تحرير الفكر الاسلامي وحارب اقبال التصوف و الطربقة محاربة شديدة واثبت ان الرهبانية ظهرت في كل امة من اجل ابطال الشرع والقانون.

ويرفض اقبال المنطلقات المادية والقيمية للحضارة. واما موقفه من الاستعمار الغربي لبلاده فكان موقف المناضل الصلد الذي فضح مظالمه والاعيبه من مؤامراته.

وقد احدث اقبال تجديداً كبيراً في حياة المسلمين في الهند ووضعهم على طريق الاسلام وشرح لهم حقائقه وملأ قلوبهم بالايمان والحماس لقضيتهم« (٤٨)ويسترجعوا عزتهم وكرامتهم ودعا الى التغيير الدائم في اطار ضوابط الشريعة، والى تحرير الفكر الاسلامي وحارب اقبال التصوف والطريقة محاربة شديدة واثبت ان الرهبانية ظهرت في كل امه من اجل ابطا الشرع

والقانون.
ويرفض اقبال المنطلقات المادية والقيم للحضارة الغربية واما موقفه من الاستعمار الغربي فكان موقف المناضل الصلد الذي فضح مظالمه والاعبيه وموامراته.
وقد احدث اقبال تجديداً كبيراً في حياة المسلمين في الهند ووضعهم على طريق الاسلام وشرح لهم حقائقه وملأً قلوبهم بالايمان والحماس لقضيتهم .

مستقبل الاسلام والمسلمين
للتعرف علي حقيقة هذا الموضوع يكفينا ان ننظر بدقة في ما قالاه حول املهما الوطيد بأن المستقبل يكون لهذا لادين حيث ان اقبال يقول:
الصين لنا والعرب لنا والهند لنا والكل لنا (٤٩)
وان النورسي يقول: وانا على يقين ان مستقبل آسيا بارضها وسمائها يستسلم ليد الاسلام البيضاء اذ يمينه يمن الايمان يمنح الطمأنينة والامان للأنام. (٥٠)

فلسفة الذات »انا«
كانت فلسفة الذات أو »انا« سببا لان يشتهر العلامة الدكتور اقبال اللاهوري كفيلسوف ومفكر اسلامي ويستنتج جميع آراءه الفلسفية من هذا الموضوع وتتصل بهذا المفهوم (انا) من حيث العلمي والعقلي. (٥١)
بناء على نظرته الدينية للعالم يرى الانسان كمخلوق كبير وخليفة الله في الارض وتفسير الآية إنّي جاعل في الارض ويهتمّ به كثيراً.
نعم، في ظل المعرفة العميقة لانا يصل الانسان الى مرتبة خليفة الله الرفيعة في الارض ومن فهم مكانة »انا« يجعله الله ايضاحاً لآية »اني جاعل« والهدف من معرفة النفس وتعريفها هذا الـ »انا« (٥٢)
دعا العلامة اقبل في كتابه »اسرار خودى« ان يفهم المسلمون الذات »أنا« ويدلهم الطريق لكي يتخلقوا باخلاق الله، في احدى رسائله الى نيكلسون يقول: لكلمة »انا « معاني كثيرة كالميل والرغبة في الابتلاع والجذب الى النفس و... واعلى هذه المعاني وارقاها هي ايجاد القيم والمثل والجهد في سبيل تحصيلها (٥٣).
وان كان العلماء والفلاسفة الذين درسوا حول إقبال ابدوا آراء مختلفة حول فلسفة الذات »انا« لكن نقول ان هدف العلامة اقبال كان عودة المسلمين الى فهم الذات كي يستيقظ المسلمون ويسترجعوا عزتهم وكرامتهم ويؤدوا دورهم بعنوان خليفة الله في الارض واما العلامة النورسي طرح فلسفة الذات »انا« بصورة اخرى بحيث يمكن ان تؤخذ من آرائهما نتيجة واحدة وهي انه يلزم على الاناسن ان يفي بدوره الفعال كما ينبغي كخليفة الله في الارض وان يؤدي هذه الامانة العظمى بصورة حسنة ويعود الى »انا« الواقعي، والعجب من المفكرين الاسلاميين لم يشيروا الى دور الامام النورسي في مسئلة »انا« ولي قصدنا في اظهار هذه المسئلة ان نقلل من قيمة آراء العلامة اقبال، كلا وكلا بل نريد ان يعلم القراء ان النورسي اهتم بها ايضاً. اما النورسي يسلك مسلكاً معتدلاً في جميع شئونه ويهدى الناس الى الابعاد الايجابية والسلبية لكل شئ.
يقول : إن » انا« مفتاح يفتح الكنوز المخفية للاسماء الالهية الحسنى، كما يفتح مغاليف الكون، فهو بحد ذاته طلسم عجيب ومعمى غريب ولكن بمعرفة ماهية »انا« ينحل ذلك الطللسم العجيب وينكشف ذلك المعمى الغريب »انا« وينفتح بدوره لغر الكون وكنوز عالم الوجوب.
ويقول اقبال: هيكل الكون كان من آثار الذات »أنا« وكل ما تراه هو من اسرار الذات حين يستيقظ ذاتية الانسان الانسان

يكشف حجاب الاوهام عن العالم. (٥٤)

والنورسي يقول: ان مفتاح العالم بيد الانسان وفي نفهس، فالكائنات مع انها منفتحة الابواب - ظاهراً - الا انها منغلقة - حقيقة - فالحق سبحانه وتعالى اورع من جهة الامانة في الانسان مفتاحا كل ابواب العالم، وطلسما يفتح به الكنوز المخفية لخلاق الكون والمفتاح - هو - ما فيك من » انا « إلاَّ ان »أنا« معمى مغلق وطلسم منغلق فاذا فتحت »أنا « بمعرفة ماهيته الموهومة - وسر خلقته - انفتح لك - طلسم - الكائنات كالآتي.

إن الله جل جلاله وضع بيد الانسان امانة هي »انا « الذي ينطوى على اشارات ونمازج يستدل بها على حقائق اوصاف ربوبيته الجليلة وشؤونها المقدسة أي يكون »انا« وحدة قياسية تعرف بها اوصاف ربوبيته الجليلة وشؤونها المقدسة أي يكون »انا« آلاف الاحوال والصفات والمشاعر المنطوية على آلاف الاسرار المغلقة التي تستطيع ان تدل وتبين - الى حدما - الصفات الالهية وشؤونها الحكيمة كلها.(٥٦)

وبعد ذكر خصائص الذات (أنا) وان »أنا« معيار لمعرفة الاوصاف الالهية يبشر الذين يعرفون »انا« ويعملون على ضوء تعاليمه بأن لهم حسبن المأب ويقول : فالذي يعرف ماهية »انا« على هذا الوجه ويذعن له، ثم يعمل وفق ذلك وبمقتضاه يدخل ضمن بشارة قوله تعالى قد أفلح من زكّيها (٥٧)

وان لم يستطع »انا« ان يعمل بواجبه ويشعر استقلاله وانحرف من مسيره كان مصيره الى الهاوية.

ولكن اذا نسي »انا« حكمة خلقه ، ونظر الى نفسه بالمعنى الاسمى تاركا وظيفته الفطرية، معتقداً بنفسه انه المالك، فقد خان الامانة ودخل ضمن النذير الالهي، وقد خاب من دسّيها (٥٨)

وفي الختام ارى ان دراسة شخصية الامام وسبر آرائه ومقارنتها بآراء المفكرين الآخرين للتعرف على شخصيته المثالية الرائعة فضلاً عن كونها ضرورة ملحة بالنسبة للعلماء والمفكرين وحاملي لواء دعوة الاسلامية. من شأنها ان تأخذ بيد ابناء الامة الاسلامية وشعوبها المختلفة في بعث روح الايمان وإنارة الطريق امامهم واعادة الحياة القرآنية وتحصينهم تحصيناً معنوياً وثقافياً بوجه التيارات المادية والالحادية.

وإن هذه الدراسة بحاجة الى انفاس طويلة وانظار عميقة وجهود مستمرة حثيثة لما لشخصية النورسي من الاحاطة والشمول والشفافية.

وأرجو ان يكون هذا المؤتمر خطوة على هذا الطريق وعملاً مبروراً مباركاً تخليداً لذكر مفسر قرآننا وبديع زماننا العلامة الامام النورسي رضوان الله عليه. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه ومن دعا بدعوته الى يوم الدين وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

* * *

المصادر والمراجع

(١) رجالات في الامة / ١ عفاش دار المعرفة، دمشق ١٩٨٨.

(٢) سلسلة الاحاديث الصحيحة للالباني ١٥٠/٢ ط دار المكتب الاسلامي

(٣) سعيد النورسي متكلم العصر الحديث / ١٠٢

(٤) بديع الزمان سعيد النورسي ، احسان قاسم الصالحي / ٢٥

(٥) ديوان اقبال بالفارسية ص ٨٢. اقبال اللاهوري ط طهران

(٦) الكلمات / ٤٢٢

(٧) ديوان اقبال بالفارسية / ٤٦٤. اقبال اللاهوري ط طهران

(٨) بديع الزمان سعيد النورسي، احسان قاسم الصالحي / ٣١.

(٩) النورسي متكلم العصر الحديث ، محسن عبد الحميد / ٣ ط القاهر.

(١٠) احياء الفكر الديني في الاسلام، اقبال اللاهوري ط موسسة فرهنكي منطقة اي طهران.

(١١) النورسي متكلم العصر الحديث، للدكتور محسن عبد الحميد / ١٤

(١٢) الكليات اقبال / ٤٦٤

(١٣) الكلمات / ٥٦٣

(١٤) الكلمات / ٥٦٧

(١٥) الكليات اقبال / ٨٥

(١٦، ١٧) الكلمات / ٦٣٨، ٦٣٩

(١٨) احياى فكرديني در اسلام / ٣٥

(١٩) انديشه هاى اقبال لاهوري / ٣٠٧ غلامرضا سعيدي ط طهران ١٣٧٠

(٢٠) بديع الزمان النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الاسلامي / ١١٦ ط القاهرة ١٩٩٢

(٢١، ٢٢) اللمعات / ١٧٧

(٢٣) آراء اقبال لاهوري / ٣٤٧ غلامرضا سعيدي طر طهران

(٢٤) بديع الزمان النورسي في مؤتمر عالمي حول تجديد الفكر الاسلامي / ١١٨ ط القاهرة ١٩٩٢

(٢٥، ٢٦) المكتوبات / ٧٨، ٧٩

(٢٧) النورسي متكلم العصر الحديث / ٢٠٥، للدكتور محسن عبد الحميد ط القاهرة

(٢٨) المكتوبات / ٢٧ (٢٩) المكتوبات / ٥٥٠

(٣٠) اقبال لاهوري شاعر بارسى كوى باكستان / ٢٠ مجتبى المينوى ط طهران

(٣١) كليات اقبال لاهوري / ١٩٥، ط طهران نشر النسائى (٣٢) المكتوبات / ١٠٦

(٣٣، ٣٤) اقبال لاهوري شاعر بارسى كوى باكستان / ٢٠، ٢١ مجتبى المينوى ط طهران

(٣٥ - ٣٧) المكتوبات / ٤١٤ - ٤١٧ (٣٨) اللمعات / ٣٨

(٣٩) انديشه هاى اقبال لاهورى / ١٥٤، غلامرضا سعيدي، نشر هرهنك اسلامي طهران ١٣٧٠

(٤٠) الكلمات / ٨٣٦

(٤١) بديع الزمان سعيد النورسي ، احسان قاسم الصالحي / ١٨٨

(٤٢-٤٤)الحل الاسلامي بين النظرية والتطبيق / ١٠٦، ١٠٧، ١٢٣ للدكتور محمد الدسوقي ، دار الوفاء ط ١ - ١٩٩٥

(٤٥) النورسي متكلم العصر الحديث / ٩٦ (٤٦، ٤٧، ٤٨) المصدر السابق / ٩٨، ١٠٤

المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان سعيد النورسي

''تجديد الفكر الاسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي''

٢٤ - ٢٦ ايلول ١٩٩٥

إسطنبول - تركيا